الباب الثالث

إميل دوركيم
والتأكيد على الحتمية الاجتماعية

المحتويات

الفصل السابع : إميل دوركيم والاتجاهات النظرية العامة
الفصل الثامن : الاسهامات المنهجية لإميل دوركيم
الفصل التاسع : نظرية إميل دوركيم وتطورها لواقع المجتمع والانسان

تمهيد :

يحتل إميل دوركيم مكانة محورية فى تاريخ النظرية الاجتماعية المعاصرة . وذلك بالنظر الى الاسهامات التى قدمها على مستوى النظرية والمنهج والتحليل السوسيولوجى للمعطيات الواقعية اضافة الى البرهنة العلمية التى قادها من أجل استكمال تأسيس علم الاجتماع .

فإذا كان سان سيمون وأوجست كونت قد رفعا شعار المطالبة بتأسيس علم الاجتماع إستكمالا لنسق التفكير العلمى الذى قطعت فى إطاره العلوم الطبيعية شوطا واضحاً . وظهرت ضرورة إستكماله بنمو مماثل للعلوم الانسانية وعلم الاجتماع ، ومن ناحية ثانية لأن الواقع الاجتماعى أصبح معقدا ، يحتاج تنظيمه الى خبرة علمية واعية وقادرة على التنبؤ وليس معرفة عامة وشائعة . فإننا نجد ان إميل دوركيم يستكمل التأكيد على دور العلم ومكانته ، ويحاول بالأساس تحديد مجاله وتحديد طبيعة وخصائص الظواهر التى ينبغى أن يهتم العلم بدراستها فى اطار المجتمع .

إضافة الى ذلك فقد قدم إميل دوركيم إسهاماً بارزاً على مستوى النظرية الاجتماعية ، حيث طور تصوراً لبناء المجتمع فى عناصره الأساسية وأيضا فى تفاعلاته وعملياته الدينامية وهو التصور النظرى الذى ضم عديداً من القضايا نذكر منها تأكيده على أولوية الفرد على المجتمع ، وان الحقائق الاجتماعية مفسرة ، فهى تكتسب معناها من خلال سياقها المحيط . إضافة الى تأكيده على ان المجتمع يشكل نسقاً متكاملاً على غرار الكائن العضوى محكوم بميكانيزماته الخاصة التى« تحدد استقراره وتغيره . وتأكيدا لذلك أعمل إميل دوركيم تصوره النظرى فى تفسير كثير من الحقائق الاجتماعية المحيطة كالانتحار والدين وتقسيم العمل الاجتماعى .

وتعتبر الاسهامات المنهجية لإميل دوركيم من أبرز اسهاماته على الاطلاق ، حيث نجد هذه الاسهامات مضمنة فى كتابه الهام (قواعد المنهج الاجتماعى) ، حيث تضمنت اسهاماته تحديداً لطبيعة الاجراءات والخطوات المنهجية التى ينبغى ان يتبعها الباحث فى دراسته للظاهرة الاجتماعية ، ثم حاول تحديد خصائص الظاهرة الاجتماعية ذاتها ، وكان فى كل ذلك يحاول تأسيس بنائه المنهجى على غرار ماهو كائن فى العلوم الطبيعية .

وتعتبر التحليلات التى أسسها أميل دوركيم من أكثر التحليلات عبقرية فى علم الاجتماع . وهى التحليلات التى قدمها لظواهر متنوعة نذكر منها ظاهرة الدين فى مؤلفه الأشكال الأساسية للحياة الدينية ، حيث قدم تحليلاً شاملاً لعدد كبير من انماط الديانة البدائية كذلك قدم

تحليلاً سوسيولوجيا واحصائيا لظاهرة الانحراف ، وحاول من خلال تحليله لهذه الظاهرة ان يبرهن على كفاءة المدخل السوسيولوجى فى دراسة هذه الظاهرة التى كانت تقع ضمن نطاق علم النفس وعلم النفس الاجتماعى حسبما يؤكد ذلك الاعتقاد الشائع . وتعتبر ظاهرة تقسيم العمل الاجتماعى من الظواهر التى نتجت عن الانتقال الى المجتمع الصناعى ، وتعتبر تحليلات إميل دوركيم لهذه الظاهرة من أكثر التحليلات عمقاً وأصاله .

وقد حاول إميل دوركيم انجاز تحليله لهذه الظواهر الواقعية المختلفة على ثلاث مستويات . ويعتبر التحليل على مستوى المجتمع أول هذه المستويات حيث حاول إميل دوركيم ان يدرس طبيعة العلاقة بين الظاهرة موضع الاهتمام والمجتمع ، وماهى الوظيفة التى تؤديها الظاهرة فى اطار السياق الاجتماعى . ويشكل بناء الظاهرة ذاته المستوى الثانى من التحليل ، حيث حاول دوركيم دائماً تحليل الظاهرة الى عناصرها الأساسية ، للنظر فى طبيعة العلاقات والتفاعل بين العناصر المكونة للظاهرة باعتبارها بناءاً فرعيا . ويعتبر المستوى الفردى هو المستوى الثالث من التحليل ، حيث يوضح دوركيم طبيعة ادراك الفرد لمشاركته فى الظاهرة ، وما طبيعة علاقته بها ، ثم ماهى الوظيفة التى تؤديها له الظاهرة . ذلك يعنى تأكيد دوركيم على ان للظاهرة وظيفتين احداهما على مستوى المجتمع والأخرى على مستوى الفرد . وهو تحليل سوف يشكل أساسا لاتجاه فكرى كامل فى علم الاجتماع هو الاتجاه الوظيفى .

وبغض النظر عن ادعاء البعض للمتضمنات الأيديولوجية لأفكار واسهامات إميل دوركيم . فمما لاشك فيه انه طبع ذاته على روح علم الاجتماع ، وحدد مساراته التى مازال لباحثون فى علم الاجتماع يلتزمون بها ، ويعملون على تطويرها . وهو الأمر الذى يتضح من تحليلنا لاسهاماته المنهجية والنظرية فى الفصول التالية :

الفصل السابع

إميل دوركيم
والاتجاهات النظرية العامة

المحتويات

مقدمة

أولا : إميل دوركيم ، طبيعة التفكير وملامحه

ثانيا : دوركيم والعلاقة بالمثالية الألمانية

ثالثا : دوركيم واستمرار الوضعية الفرنسية

رابعا : دوركيم والقطيعة مع المذهب النفعى

خامسا : دوركيم ونطاق الخلاف مع الماركسية

مقدمة

بدأت النظرية الدوركيمية فى التشكل تحت تأثير نظريات القرن التاسع عشر واتجاهاته الفكرية . ويمكن القول بتميز الاتجاهات النظرية العامة التى سادت هذه المرحلة بعدة خصائص . وتتمثل أول هذه الخصائص فى فترة العلاقة بين هذه الاتجاهات النظرية وبين أفكار التنوير وقضاياه بحيث يمكن النظر الى هذه الاتجاهات باعتبارها تبلوراً لمضامين التنوير . أو أنها الأفكار التى حاولت تأمل الواقع وتحليله بعد ان تجسد التنوير فى نطاقه . ومن ثم يكشف تحليل شعاراتها عن روح التنوير وأفكاره .

وتتمثل الخاصية الثانية فى أنه برغم إدعاء الاتجاهات النظرية العامة بكونها تصورات شاملة للواقع الانسانى والإجتماعى ، فإنها لم تشكل سوى وجهات نظر جزئية فى الواقع الانسانى والكونى الشامل . بعضها أكد على الكل ، المجتمع أو الكون الذى يخلع طبيعته على الأجزاء أو الأفراد ، بينما أكد البعض الآخر على الجزء أو الأفراد ، الذين يكسبون الكل خصائصه . البعض أكد على ماينبغى أن يكون باعتباره مقياس الكمال ومنتهاه . بينما أكدت اتجاهات أخرى على ماهو كائن ، باعتباره وجه الحقيقة الذى ينبغى أن ينال اهتمام الانسان .

وتشير الخاصية الثالثة الى الطابع المتأرجح لهذه الاتجاهات النظرية العامة . فلا هى قضايا فلسفية مسرفة فى التجريد والانفصال عن الواقع ، ولا هى قضايا واقعية قريبة الصلة بالواقع ، بحيث تكون قادرة على الرصد الدقيق والمفصل لتفاعلاته . فهى نوع من التفكير حقيقة ان له طبيعته الفلسفية العامة ، إلا أنه مغرم دائماً بتأمل الواقع ، يحاول دائماً النفاذ اليه ، ولأن هذه الاتجاهات النظرية كانت اتجاهات متبلورة ومحددة منذ كان منطقيا أن يكون لها تأثيرها على تفكير أميل دوركيم ، وهو مانعرض له فى الفقرات التالية من هذا الفصل .

أولا : إميل دوركيم ، طبيعة التفكير وملامحه

ولد دوركيم ، لأبوين حاخمين وكيهودى منتمى لمنطق الالزاس ، شق طريقه الفكرى خارج النظام الأكاديمى منذ البداية ، وان انتهى الى السيطرة عليه من خلال احتلاله لكرسى الأستاذية بجامعة باريس [1] . بحيث أورثته هذه النشأة ، وهذا الأسلوب فى الحياة اهتماما خاصا بالدين والأخلاق وتركيزا فعالا على الطابع العملى للجهد العلمى ، وهو مايميز الى حد كبير التفكير الدوركيمى ويفرقه عن اقرانه خلال هذه الفترة التاريخية . بحيث اكتسب تفكيره طابعا خاصا له خصائصه المتميزة .

من هذه الخصائص الطابع الأكاديمى لتفكيره . ومن ثم فالانتقال من تفكير ماركس الى تفكير دوركيم ، ليس انتقالا من جيل الى جيل آخر من المفكرين الاجتماعيين ، ولكنه يعنى انتقالا واختلافا فى طبيعة التفكير العقلى ، أو السياق الاجتماعى . اذ نجد ان دوركيم أقل من نظرائه (ماركس ، ماكس فيبر) من حيث الاهتمام بالأهداف السياسية البارزة فى عصره ، ومن ثم فقد تميزت أعماله بأنها أكثر تكاملا ، وأكثر أكاديمية وأقل دعائية (٢) .

مايتميز به الموقف الدوركيمى أيضا اختلاف الوقائع التى واجهها نموذجه النظرى عن تلك التى كان مقدرا على المشروع الماركسى أو البناء النظرى لماكس فيبر مواجهتها . فبينما كان النظام الرأسمالى من حيث أصوله ونشأته وميكانيزمات استمراره هو القضية الخلافية بين ماركس من ناحية وماكس فيبر من ناحية أخرى . كان علم الاجتماع لدى دوركيم يهتم أساسا ليس بنشأة النظام الرأسمالى وانما بطبيعة التفاعل الكائن داخل هذا النظام ، وكيف له ان يحقق أعلى مستويات السواء بدلا من الانهيار فى اطار حالة من الأنومى الأخلاقية التى قد تأتى عليه . من هنا فنحن نتفق مع ارفنج زايتلن على ان اهتمامه المبكر – منذ ١٨٨٣ – بقضايا الاشتراكية ، كان مجرد نقطة بداية ، فى الوقت الذى بدأ يضع فيه الخطة المبدئية لكتابه تقسيم العمل الاجتماعى ، ثم تابع اهتمامه – بقضايا التكامل البنائى والأخلاقى – من خلال دراساته فى الانتحار ، والعائلة والدين (٣) .

من الخواص التى ميزت المشروع الدوركيمى أيضا ، أنه لم يطرح متكاملاً منذ البداية ، ولهذا فقد تميز بحالة من الدينامية وعدم الثبات ، فقد امتلك القدرة على التطور التاريخى الى حد اتخاذ مواقف مرحلية قد تبدو فى ظاهرها متباينة ، هذا بالاضافة الى تناوله لقضايا متعددة تخص فترته المعاصرة . فمن ناحية التطور التاريخى نجد المشروع الدوركيمى قد طرأت عليه تغيرات أساسية . ففى اطار المرحلة التكوينية الأولى ، حيث شكل مؤلفه تقسيم العمل الاجتماعى (١٨٩٣) أهم وثائقها تصويرا لمرحلة كان دوركيم خلالها يتحسس طريقه لصياغة قضاياه الأساسية . ثم تلت ذلك مرحلة كان فيها دوركيم على مشارف تأليف نسق نظرى متكامل ، بدا أكثر كفاءة بالنسبة للحقائق الامبيريقية التى تصدى لدراستها . بل أن دوركيم بدأ بهذا النسق النظرى أكثر قدرة على أن يواجه بنجاح كافة الهجمات النقدية الهامة التى تعرض لها خلال هذه الفترة . ويعتبر كتابه قواعد المنهج فى علم الاجتماع (١٨٩٥) ودراسته فى الانتحار (١٨٩٧) من أهم وثائق هذه المرحلة . أما الفترة الثالثة فقد بدأت حينما وقعت انتقالة أساسية فى البناء النظرى لدوركيم تميزت بميل التأليف النظرى القديم لديه نحو الانهيار ، لصالح بروز

بناء نظرى آخر ، بحيث تعتبر كتاباته مثل التصورات الفردية والتصورات الجمعية (١٨٩٩) ، والتربية الأخلاقية (١٩٠٢) ، وحتمية الحقيقة الأخلاقية (١٩٠٧) من أهم وثائق هذه المرحلة . ومن أهم ملامح هذه المرحلة انهيار السياج الوضعى من حول دوركيم وانطلاقه الى الآفاق المثالية . وهو ماشكل ملامح المرحلة الرابعة . وهى المرحلة التى اتخذ فيها دوركيم موقفا نظريا جديدا ، بل اننا نحده قد تصدى لقضايا جديدة أيضا . ويعتبر مؤلفه الأشكال الأساسية للحياة الدينية (١٩١٢) من أهم وثائق هذه المرحلة . غير اننا نستطيع أن نؤكد أن إميل دوركيم فيما يتعلق بالتطور التاريخى لمشروعه النظرى – قد توفى دون أن يكمله بشكل نهائى – ومن ثم فقد تخلق تياران فكريان أساسيان داخل بنائه النظرى كل منهما يناضل للتفوق على الآخر (٤) .

خلاصة القول فيما يتعلق بالتطور المرحلى لدوركيم اننا نجده قد اتبع البرنامج الوضعى فى دراسته للحقائق الاجتماعية بمنهج يتناولها كأشياء من الخارج ، وهى مسألة تتعلق بالمسلك المنهجى لعلم الاجتماع . غير أننا نجده قد انتهى الى الإيمان بفكرة ميتافيزيقية هى عقل الجماعة أو العقل الجمعى . الذى حاول دوركيم ادراكها ادراكا وضعيا ، كالأشياء ، غير أن الالهام الأساسى بهذه الفكرة ، وأصولها التاريخية والفكرية يرجع أساسا الى الفكر المثالى ، وهو التأثير الذى شكل ملامح المرحلة الثانية لدوركيم (٥) .

مايتميز به الفكر الدوركيمى أيضا هو تعدد المؤثرات التى تعرض لها المشروع الدوركيمى ، وكثرة المحاور الفكرية التى قاد برهنته فى مواجهتها حول أى من قضايا الاهتمام . أما فيما يتعلق بتعدد المؤثرات التى كانت لها وطأتها عليه نجد ان الفكر الوضعى يمثل أولوية فى هذا الصدد ابتداء من سان سيمون وأوجست كونت ، حيث اتصل هذا التأثير أساسا بالجوانب المنهجية للتنظير الدوركيمى ، وهو وان خضع لتأثير الوضعية فى بعض الجوانب إلا أنه خالفها فى مواضع كثيرة (٦) .

وهو قد تأثر أيضا بالفكر المثالى من خلال قراءاته لديكارت وكانت وهيجل . فهو يرفض أولوية الفرد على المجتمع كما تذهب الفلسفة الديكارتية وتحاول أن تبرزه ، وهو يرفض أيضا أن تكون مقولات الانسان فى الادراك من خارج الواقع الاجتماعى على مايذهب كانت ، وهو أيضا يأخذ فكرة العقل الجمعى – التى وصمته بتهمة الميتافيزيقية – عن هيجل ، ثم يتفق كثيرا مع فوندت حول أولوية المجتمع على الفرد وتحتيمه له (٧) .

واذا كان دوركيم قد تعرض للفكر الفرنسى من خلال الحوار الذى قاده مع النظرية الوضعية ، والفكر الألمانى من خلال رفضه وقبوله لعدد من الأفكار المثالية ، فاننا نجده قد

تعرض أيضا للفكر الانجليزى بحيث تمثل ذلك فى موقفه من النظريات الفردية وخاصة التى ترجم أصولها الى الفكر النفعى . هذا بالاضافة الى أنه قد تأثر واستفاد من المعطيات الميدانية التى وفرتها الانثروبولوجيا الانجليزية فى هذه المرحلة . فهو يرفض فى النفعية تأكيدها على امكانية تفسير الواقعة الكونية أو الاجتماعية وكذا خصائص الكائن البشرى بعوامل كالوراثة ، ومن ثم نجده يرفض كافة التفسيرات التى طرحت لظاهرة الانتحار بالنظر الى العوامل المتعلقة بالبيئة الخارجية أو السلالة أو العوامل السيكولوجية المرضية ، أو حتى ظاهرة التقليد السيكولوجية[٨] .

ويتضح تأثره بالأنثروبولوجيا الانجليزية من اعتماده فى تأسيس نظريته عن الدين ومجتمع التضامن الآلى على قراءاته لأعمال الأنثروبولوجيين الانجليز التى فرضت عليه كثيرا ان يعيد تقييم كتاباته الأولى من أجل أن يتمكن من استنتاج متضمنات بعض الأفكار الجديدة [٩] .

هذا بالاضافة الى انه قد أخذ فكرة المماثلة العضوية التى أدت دورا محوريا فى اطاره النظرى عن الفكر الألمانى والفرنسى من خلال المفكرين الذين قرأ لهم ومنهم فوييه Follèe ، وفورمس Worm شيفله Scheffle وليلينفيلد Lilienfeld. حيث طرحت فكرة المجتمع باعتباره يشكل وحدة متكاملة تماثل الى حد كبير وحدة الكائن العضوى البيولوجى . فى اطار ذلك نجده يتفق مع الألمانى شيفله فى انفصال خصائص المجتمع عن خصائص الأعضاء المكونين له . وان المجتمع كائن له وجوده المسبق على وجود أعضائه المكونين له . وان المجتمع له تأثيره على أفراده أكثر مما لهم عليه . وله أيضا حياته ووعيه ومصالحه وقدره [١٠] .

ولايتوقف التباين على طبيعة وتعدد المؤثرات الى كانت لها وطأتها على المشروع النظرى لدوركيم ، وانما انسحب ذلك على طبيعة القضايا التى تناولها بالدراسة . اذ نجده فى المرحلة الأولى قد قاد حوارا نظريا حول قضايا كثيرة شكلت مواقف خلافية بينه وبين الانسلق النظرية المعاصرة له . بحيث شكلت المرحلة الثانية صياغة ايجابية لحاصل المواقف النقدية التى اتخذها بشأن هذه الأنساق النظرية .

فهو مع الفكر الوضعى يناقش ناقدا العوامل المفسرة للواقعة الاجتماعية من حيث كونها عوامل لا اجتماعية أساساً – البيئة والوراثة – وان لم يمنعه ذلك من استناده فى كثير من منهجيته على التراث الوضعى [١١] . وهو مع الفكر المثالى يتفق مع هيجل حول أهمية الدولة فى المجتمع غير أنه يختلف مع الفكر المثالى وخاصة كانت وهيوم حول رفض التصورات القبلية أو الأصول الابستمولوجية لمقولات الادراك الانسانى (الزمان والمكان والنسبية) [١٢] . ثم هو مع

الفكر النفعي يقود حوارا حادا حول أولوية الفرد أم المجتمع فى تأسيس الواقعة والتفاعل الاجتماعى ومن ثم الوجود الاجتماعى . حيث تركز الخلاف حول مصدر الواقعة الاجتماعية ، هل هى من داخل الانسان أم من خارجه . ثم هو مع الفكر الماركسى يناقش المشروع الرأسمالى ، ليس من حيث نشأته ولكن من حيث طبيعة التفاعل السائد به ومن ثم ميكانيزمات هذا التفاعل واتجاهاته .

ونتاجا لهذه الحوار – ذى الجوانب السلبية والايجابية – أسس دوركيم اطارا تفسيريا جديدا أصبح يعرف فيما بعد بنزعة الاسناد أو الإرجاع الى الجماعة ، وهى النزعة التى تعنى ان الحقيقة الاجتماعية مفسرة لذاتها (١٣) . وأن كان قد أسبق ذلك بتوضيح ماهية الحقيقة الاجتماعية ، حيث يراها اظهارا للوجود أو الضمير الجمعى ، ذلك الكيان الذى صاغ له دوركيم وجودا واقعيا متجسدا . وجعل منه مجالا لعلم الاجتماع ، قطع الطريق بذلك على أية تفسيرات تحاول رد الحقيقة الاجتماعية الى عوامل فردية نفسية أو بيلوجية (١٤) . والواقع انه اذا قيل ان هذه النزعة لها تاريخها فى الفكر الاجتماعى الفرنسى . الأمر الذى يعنى بشكل ما أن الجماعة تسبق الوجود الفردى وتشكله ، وأنها – أى الجماعة – مصدر الثقافة وكل القيم السامية ، وان الحالات الاجتماعية لاتنتج أو تتأثر بواسطة رغبات الأفراد (١٥) . فاننا نؤكد ان دوركيم قد منح هذا التصور دفعة جديدة ، بأنه مارس عمليات البحث والتفسير بالنظر اليه . وكانت أبرز ممارساته فى هذا الصدد دراسته فى الانتحار التى أراد بها دعم تفسيراته النظرية بشواهد واقعية ملائمة . وبذلك مثلت هذه الدراسة ريادة فى القدرة على الربط المتكامل بين الأطار النظرى والبحث الامبيريقى ، وبذات الأسلوب يمكن النظر الى دراسته الأثنوجرافية عن الأشكال الأساسية للحياة الدينية (١٦) .

خلاصة القول ان إميل دوركيم أسس بناء نظريا نتيجة لحواره مع قضايا عصره ، بحيث اتسم هذا البناء بالأبعاد الأساسية التالية :

١ – فهو أولا قد تحرك من موقف سلبى نقدى بالنسبة للفردية النفعية ، أو بالنسبة للوضعية التى حاولت تفسير الواقعة الاجتماعية بالنظر الى عوامل البيئة ، والوراثة . بحيث أصبح العامل الاجتماعى هو المقولة الاجتماعية الجوهرية التى تحولت فيما بعد الى موقف ايجابى ، حيث أصبح العامل الاجتماعى المسئول عن مظاهر أساسية للظاهرة أو الواقعة الاجتماعية كالخارجية والقهر ، تفسر نظريا بالنظر اليه وليس بالنظر الى عوامل البيئة أو الوراثة .

٢ – انه أيضا قد تحرك الى موقف يرفض من خلاله المداخل الفردية التى تسند الى الأفراد – فى وجودهم الامبيريقى – عبء انشاء النظام الاجتماعى ، حيث الأفراد نولتج وليسوا مقدمات له . فى اطار ذلك نجد أن دوركيم يرفض امكان ان يكتسب المجتمع خصائصه من واقع خصائص الأفراد المكونين له . فى مواجهة ذلك نجده يفرض المنهج الجمعى . حيث التأكيد على أولوية الجماعة التى تكسب الأفراد – أعضاءها – خصائصهم . ثم هو الذى أكد على ان وحدة التحليل الأساسية للفكر السوسيولوجى تتمثل فى الجماعة وليس الفرد .

٣ – نتيجة لنقده للحتميات التى سادت عصره ، نجده يرفض الحتمية الثقافية التى قال بها هيجل حيث الفكرة سامية متعالية على الواقع تفرض عليه التطابق وفق خصائصها . وفى مقابل ذلك نجده يرفض الحتمية الاقتصادية التى قال بها ماركس باعتبار أنه من الخطأ منطقيا ان نفسر الكل بالنظر الى الجزء . هذا بالاضافة الى رفضه الحتميات الأخرى التى سادت عصره لكونها خارجة عن الطبيعة الاجتماعية للانسان وان كانت تشارك الحتمية الاجتماعية فى كون وجودها وفاعليتها تكمن خارج الانسان الفاعل .

ونتيجة لهذا الحوار المتعدد الأبعاد حول قضايا شديدة التباين ، نجد إميل دوركيم قد تمكن من صياغة تصور محدد للتفاعل الاجتماعى يتلاءم مع بنائه النظرى الشامل ويشكل جانبا أساسيا منه . هذا التصور النظرى للتفاعل الاجتماعى له جوانبه أو مستوياته المنهجية والنظرية التى لها أصولها فى التيارات النظرية والفلسفية التى تعرض لتأثيرها إميل دوركيم .

ذلك يعنى أن النظرية الدوركيمية قد تشكلت من خلال الحوار النقدى مع الاتجاهات النظرية العامة التى سبقته ، أو مع قضايا النظرية السوسيولوجية التى عاصرها حيث كان إميل دوركيم امتدادا لبعض هذه الاتجاهات النظرية العامة وان اختلف معها فيما يتعلق ببعض القضايا الأساسية التى تنم عن حالة اكتمال بلغتها النظرية السوسيولوجية . كما هو الحال فى علاقته بكل من الوضعية والمثالية الألمانية . بينما كان فى مواقف أخرى رافضا لاتجاهات نظرية بكاملها كما هو الحال فيما يتعلق بموقفه من الفكر النفعى . حيث يعتبر مؤلفه تقسيم العمل الاجتماعى برهنة على زيف الموقف النفعى من حيث تصوره لتأسيس الواقع الاجتماعى أو مكوناته أو طبيعة تفاعله ، وملامح الحتمية أو القوانين التى تحكمه ، بالاضافة الى ذلك كان له حوار مع بعض نماذج النظرية السوسيولوجية المعاصرة له . وأهمها النظرية الماركسية

والتصورات السيكولوجية لجابرييل تارد ثم النظرية البيولوجية التى لعب دارون وهربرت سبنسر دورا أساسيا فى ريادتها .

وسوف نعرض فيما يلى لأهم الاتجاهات النظرية العامة التى كان لها تأثيرها فى تشكيل أفكار إميل دوركيم .

ثانيا : دوركيم والعلاقة بالمثالية الألمانية

وان كان دوركيم قد نشأ فى أحضان الفلسفة الوضعية إلا أن اصراره على ضرورة أن يكون علم الاجتماع أكاديميا جعله معرضا للتأثر بمختلف الاتجاهات النظرية المعايشة له . ولقد كان الفكر المثالى من بين هذه الاتجاهات . ذلك ان دوركيم قد تعرض لتأثير الفكر الألمانى ، أولا لأن هذا التفكير كانت له وطأته على الفكر الأوربى والانسانى بشكل عام بالنظر الى الفلسفة التى أشاعها هيجل والذى قيل عنه انه ظل يتفلسف حتى كاد ألا يترك للفلسفة قضية تتفلسف بشأنها بعده [١٧] . وثانيا لأن دوركيم تعرض بشكل مباشر لتأثير الفكر الألمانى من خلال دراسته للفلسفة فى ألمانيا . ومن ثم فالمحلل لبناءه النظرى يكشف عن عناصر مثالية عديدة [١٨] . ويمكن تحديد طبيعة الصلة بين دوركيم والفلسفة المثالية بالنظر الى الملامح الأساسية التالية :

١- أنه من خلال الحوار مع الفكر المثالى رفض أفكارا وتبنى أخرى ، كان لها بروزها فيما بعد فى بنائه النظرى بما أكسبته طابعا خاصا . وذلك كالمماثلة العضوية والضمير أو العقل الجمعى ، وفاعلية العنصر الأخلاقى ، ومدى ارادية السلوك الانسانى .

٢ - أما الخاصية الثانية فتتعلق بطبيعة نمو المشروع النظرى لإميل دوركيم ، اذ نلاحظ تحركا داخل الاطار الوضعى الصارم حيث محاولة التشبه التام والشكلى بالعلوم الطبيعية الى الاطار المثالى حيث التعرض لظواهر مثل الوعى والعقل الجمعى ، وخواص المجتمع التى لايمكن اشتقاقها من خواص عناصره المكونة ، وفى ذلك مخالفة للتعاليم الوضعية بحيث نجد تجسيدا لهذا التحرك فى الازدواجية التى عانى منها المشروع الدوركيمى على مايذهب تيماشيف ، تلك الازدواجية التى تتمثل فى التصور المثالى للجماعة ثم الأصل الاجتماعى والأخلاقى لهذا التصور المثالى [١٩] .

٣ - أن تأثر دوركيم بالفكر المثالى كان فيما يتعلق ببعض الأفكار أو الجوانب دون أخرى . هذا بالاضافة الى رفضه الواضح للمثالية النقدية التى ترى فى الوجود المادى للجماعة

أصلا لكل ماهو قيمى ومثالى ومعيارى ، يتضح ذلك من تأكيده فى مقدمة الطبعة الأولى لمؤلفه قواعد المنهة فى علم الاجتماع ، اذ يقول (أن برهنته ليست ثورية على الاطلاق) . وهو بذلك يرفض الثورية التى تبنتها بعض أجنحة المثالية وأن لم يسنحب ذلك على المثالية ذاتها . وهو يؤكد أنه اذا كان - حتميا - كالثوريين إلا أنه أقل خطورة من هؤلاء الذين (يرون فى الظواهر الاجتماعية نوائج للسيطرة التى لايعوقها شئ ، والتى يمكن أن نفيها فى لحظة بواسطة صنعة جدلية بسيطة) . وفى أماكن أخرى يذهب لى أنه قد لا يرضى بالتسمية المثالية على هذا النحو الثورى ولا بالتسمية المادية ، وأنه يؤكد أن التشخيص الوحيد الذى يمكن أن يوافق عليه هو التشخيص العقلانى [٢٠] . بذلك نستطيع التأكيد على ان دوركيم كان امتدادا لبعض الأفكار المثالية المحافظة التى قد لاترجع الى دى بونالد أو دى ميستر ، وانما ترجع الى هيجل أساسا ، فمن الواضح ان هناك اتفاقا على ان المفكرين الألمان الذين تأثر بهم دوركيم هم هيجل - للينفلد وشيفله [٢١] . هذا مع استبعاد أى تأثر أو اتصال لدوركيم بالأجنحة النقدية للمثالية التى لعب كل من فويرباخ وماركس دوراً أساسيا فى اطارها .

وتعتبر قضية الضمير الجمعى - بطابعها الحتمى بالنسبة للانسان والتفاعل الاجتماعى - هى الفكرة الأساسية التى أخذها دوركيم عن الفكر الألمانى . وهى فكرة لعبت دورا جوهريا فى البناء النظرى لدوركيم . اذ نجد ان دوركيم قد استعار هذه الفكرة من مصدرين يرجعان أصلا الى الفكر الألمانى . ويرجع المصدر الأول لفكرة الضمير أو العقل الجمعى الى فكرة العقل الكونى فى بحثه عن الاكتمال - الذى يتحقق وفقا للمشروع الفلسفى لهيجل عندما يتطابق الواقع مع العقل فى زمان الدولة الألمانية - فانه يقود نوعين من التفاعلات الجدلية ، فهو من ناحية يمارس جدلا مع الواقع تكون للعقل حركة البدء والقيادة فيه ، هذا بالاضافة الى خضوعها لنوع آخر من الجدل الداخلى ، الذى يجعله أكثر استيعابا لمتغيرات الواقع المتجددة والمتنوعة . فى اطار ذلك نجد ان دوركيم قد استبدل هذا العقل الكونى بعقل الجماعة أو الضمير الجمعى الذى يمثل لديه الشكل الأعلى للحياة العقلية ، حيث هو وعى مجموعات الوعى ، ومادام مكانه فوق الفرد والأحداث المحلية فانه يرى الأشياء من جوانبها الأساسية والدائمة ، تلك التى يبلورها فى شكل أفكار تكون موضع اتصال وتواصل ، وفى نفس الوقت فهو يرى من أعلى ، وماهو أبعد فى أى لحظة من الزمن ، انه يضم كل الواقع المعلوم ، وذلك هو السبب فى أنه وحده هو الذى يمكن ان يجهز العقل الفردى بالقوالب الملائمة لكل الأشياء ، والتى تجعل من الممكن له ان يفكر من خلالها ، انه لايخلق هذه القوالب صناعيا ،

بل يجدها بداخله ولايفعل شيئا سوى ان يكون على وعى بها [٢٢] . ومن ثم فمثلما منح هيجل العقل الكونى الشامل أو المطلق حتمية مطلقة ليس على الواقع سوى التكيف مع حركته ، فاننا نجد ان دوركيم قد نقل هذه الحتمية ومنحها للضمير الجمعى الذى يصوغ الأشكال . القوالب التى يفكر من خلالها الأفراد .

ويعتبر التصور الكلى الناتج عن المماثلة العضوية هى الفكرة الثانية التى أخذها دوركيم عن الفكر المثالى الألمانى . حيث أدرك ان المجتمع يشكل موقفا كليا فى بعده التاريخى والمعاصر ، بحيث تستوعب هذه الكلية كافة المواقف وأنماط السلوك الجزئية . ولقد تأكدت هذه الكلية لديه تحت تأثير الكتابات المثالية الألمانية لكل من شيفله Schaffle ليلينفيلد Lilienfeld فى ألمانيا ، وفوييه Fouillèe وفورمس Worms فى فرنسا ، وهى الكتابات التى أكدت على امتلاك المجتمع لوحدة عضوية متكاملة تماثل تلك التى للكائن العضوى الحى [٢٣] . والحق ان نقل دوركيم لهذا التصور ومزاوجته والتناول التحليلى الوضعى لعناصر الواقع الاجتماعى يمثل ابداعا دوركيميا حقيقيا . حيث يصبح السلوك المتعلق بأى من عناصر الكلية تكمن دوافعه بهذه الكلية وليست بعناصره ، وأن هذا السلوك يهدف أساسا – أيا كانت طبيعته – الى تأكيد الوحدة الكلية الشاملة والمتضمنة له .

وتتعلق الفكرة الثالثة التى نقلها دوركيم عن الفكر المثالى بهوية المجتمع وخصائصه الأساسية . اذ نجد ان المجتمع ككائن عضوى تكون له هويته وخصائصه المتميزة عن هوية وخصائص أفراده المكونين له . وهو مايميز التصور العضوى للمجتمع عند دوركيم عن نظيره عند هربرت سبنسر . فى اطار ذلك يشير دوركيم متفقا فى ذلك مع شيفله الى ان هناك فارقا واضحا بين حياة الكائن العضوى وحياة المجتمع . فبينما تظل حياة الكائن العضوى الحيوانى محكومة بشكل ميكانيكى فاننا نجد المجتمع يتماسك بعضه مع البعض ليس عن طريق العلاقة المادية ولكن عن طريق روابط الأفكار . ويؤكد دوركيم انه نظرا لأن فكرة المجتمع كمثال قد احتلت مكانة جوهرية فى تفكير شيفله فانه أكد كثيرا على ان المجتمع له خصائصه الخاصة به والمنفصلة عن خصائص أفراده المكونين له . فالمجتمع بالنسبة لشيفله ليس ببساطة تجمعا من الأفراد ، ولكنه كائن موجود بشكل سابق عن هؤلاء الذين يكونونه اليوم ، والذين سوف يساعدهم على البقاء ، مؤثرا فيهم أكثر من تأثيرهم فيه . والذى له حياته الخاصة ووعيه ومصالحه وقدره . من أجل ذلك يرفض شيفله تصور أولوية الفرد على المجتمع تلك التى أقرها روسو . حيث يؤكد دوركيم متفقا فى ذلك مع شيفله ان الانسان يأخذ كل شئ يجعل الحياة

الانسانية أسمى من الوجود الحيوانى من الثروة التكنولوجية والثقافية المتراكمة بالمجتمع ، واننا اذا حرمنا الانسان من هذه الثروة ، فاننا سوف نلغى كل مايجعلنا بشرا (٢٤) .

بالاضافة الى ذلك نجد ان هناك أفكارا متعددة أخذها دوركيم عن المثالية الألمانية . منها مثلا الفكرة المتعلقة بأهمية المثل والوحدة الأخلاقية بالنسبة لاستمرارية المجتمع . وكذلك أهمية الفرد كوسيلة فعالة وكمستقبل للتأثيرات الاجتماعية . بل اننا نجد ان الطبيعة المزدوجة لارتباط الفرد بالمجتمع أخذها دوركيم عن الفكر المثالى ، حيث تتضمن هذه العلاقة الالتزام من ناحية والارتباط الايجابى بالمثال من ناحية أخرى . هذا بالاضافة الى فكرة اكتساب التنظيم الشامل للوحدات لخصائص لايمكن استنتاجها من خصائص الوحدات المكونة كل منها منعزلة عن الأخرى (٢٥) .

بل اننا نجد ان دوركيم يتفق كثيرا مع تصور هيجل لمفهوم الدولة أو موقفها من الفرد والمجتمع . اذ يؤكد - متفقا فى ذلك مع هيجل - على ان الواجب الأساسى للدولة هو أن تحافظ على التزام الفرد بأسلوب الحياة الأخلاقى . ثم يؤكد أنه فى يومنا تشكل الدولة أكثر أشكال المجتمع المنظم وجودا (٢٦) .

غير أنه وان كان لدوركيم اتفاقاته مع الفكر المثالى فاننا نجد أيضا أن له خلافاته الحادة معه . بيد انه من الملاحظ ان اتفاقات دوركيم كانت مع الأجنحة أو الأفكار المحافظة للفكر المثالى ، بينما اختلافاته كانت مع الأجنحة النقدية ذات الطابع الثورى .

ومنذ البداية نجده يرفض الطابع النقدى لادراك الواقع الاجتماعى . ولما كانت المثالية النقدية تمتلك دائما تصورا مسبقا للواقع يعتبر اطارا مرجعيا يتم على أساسه نقده وتغييره ، فاننا نجد ان دوركيم يرفض أى تصور مسبق عن الواقع أو لما ينبغى أن يكون عليه تفاعله . فى اطار ذلك نجده يؤكد ان الظواهر الأخلاقية لايمكن ابتكارها أو تحطيمها بواسطة رؤية أى فيلسوف أو عالم أخلاقى . بل يجب أن نبحث عن شروطها وأسبابها فى المجتمع الذى توجد فيه . فالعالم الأخلاقى المكتبى يؤسس نسقه الأخلاقى بالنظر الى الانسان المجرد الذى ليس سوى مفهوم منطقى خال من أية قيمة موضوعية ، بينما الانسان الحقيقى ، هو إنسان الحقيقية والواقع الذى ينمو مع الوسط الذى يحيط به (٢٧) .

ويذهب دوركيم الى انه ابتداء من سقراط اعتاد الفلاسفة تفسير الحياة - الخاصة بالفرد والمجتمع - بارجاعها الى نسق من الأفكار المجردة أو المترابطة منطقيا (٢٨) . ومن ثم نجد أن دوركيم يطرح فى مواجهة ذلك وجهة نظره فيما يتعلق بالأصل الاجتماعى لمقولات

الادراك كالزمان والمكان والسببية . وهو بذلك يرفض برهنة كانت التى تؤكد ان هذه المقولات معطاة منذ البداية ، بينما يؤكد دوركيم على أصلها الاجتماعى . فرتابة الحياة الاجتماعية للتجمع هى التى دفعت الى ظهور فكرة الزمن ، والتوزيع الأيكلوجى للقبيلة هو الذى شكل أساسا لأفكارها عن المكان ، وهكذا فيما يتعلق بمقولة العلاقة السببية التى تشير ضمنيا الى فكرة الكفاءة الخاصة بالقوى الفعالة ، فالسبب هو شئ ما قادر على انتاج المتغير الاجتماعى (٢٩) . فى اطار ذلك نلاحظ ان رفض دوركيم لمثل هذه الأفكار استند أساسا الى طبيعة الادراك الوضعى والمنهج العلمى الذى يرى ان ادراك الباحث للحقيقة ينبغى أن يكون غير متحيز ، ورافضا لأية أفكار مسبقة عنها .

ويعتبر التركيز على الفرد فى مواجهة الجماعة من قبل بعض أجنحة الاتجاه المثالى – خاصة ذلك الجناح الذى يعتبر ماكس فيبر امتدادا له – النطاق الثانى لخلاف دوركيم مع المثالية . حيث كان هذا الخلاف انعكاسا لخلاف أساسى ساد فترة القرن السابع عشر حتى التاسع عشر بين الاتجاه الفردى الذى تمثلت ريادته فى الفيلسوف الفرنسى رينيه ديكارت والذى يتصور العقل الفردى منعزلا عن المجتمع ، يتضح ذلك من اعلان ديكارت الشهير (أنا أفكر فأنا موجود) ، ومن ثم فقد جعل الانسان المفكر وليس الله أو المجتمع ، هو سيد قدره ومصيره . واستمرت هذه الرؤية الديكارتية منذ القرن السابع عشر حيث الايمان بأن عقل الانسان وشخصيته يشكلان الحقيقة الأساسية بينما المجتمع والثقافة والنظم ماهى إلا حقائق ثانوية مشتقة مما قد أرسى فى الفرد منذ الولادة .

غير انه بحلول القرن الثامن عشر وقيام الثورة الفرنسية تأسس اتجاه فكرى آخر يؤكد على أهمية التربية والبيئة التى تطبع كل شئ فى عقلية الفرد الذى يولد فى اطارها صفحة بيضاء . وهو التصور الذى ترسخ خلال القرن التاسع عشر بواسطة كل من هيجل والفلاسفة المثاليين المحافظين من أمثال دى بونال ، ودى ميستر . الذين أكدوا ان البداية ينبغى ان تكون دائما من المجتمع وليس الفرد (٣٠) .

بالنظر الى ذلك نجد ان دوركيم يتخذ موقفا يختلف فيه مع فلاسفة الأخلاق المثاليين ، حيث نجده قد اتهم من قبلهم بقهر أفضل مكونات الوجود بالنسبة لهم ، وهو الاستقلال الأخلاقى للفرد ، ومن ثم استحق من وجهة نظرهم ان يكون ماديا (٣١) . وان كنا نوافق المثالية النقدية أو الثورية فى بعض من هذا النقد لدوركيم ، فان موافقتنا تنطلق من ان دوركيم وان تحدث كثيرا عن تحرير الفرد من طغيان الدولة عن طريق تدخل الجماعات المهنية كحاجز بينه

وبين الدولة لحماية حريته ، فان دوركيم بذلك لم يكن يهدف الى ان يجعل من الحرية الفردية التزاما أخلاقيا . فالفرد بالنسبة لدوركيم لم يكن سوى تجريد مستغرق فى الجماعة الخاضعة بدورها للمجتمع (٣٢) .

وفى هذا الصدد ينبغى ان تدرك ان هناك فارقا دقيقا بين الرفض الدوركيمى للفردية بالمفهوم النفعى ، وهى الفردية التى لاترى سوى مصالحها دونما اعتبار للوجود الاجتماعى الكائن حولها ، وبين رفضه الفردية بالمعنى المثالى ، حيث لم تكن لها مصالحها التراثية ، ولكنها تهدد دائما باعادة صياغة المجتمع وتغييره لتشكيله وفقا لتصوراتها ومثلها القبلية الخاصة . ومن ثم فهى فردية مهددة للتفاعل والاستقرار الاجتماعى ، وهى المقولة التى تحتل مكانة جوهرية فى المشروع الدوركيمى فيما يتعلق بعلاقة الانسان بالمجتمع .

ثالثا : دوركيم واستمرار الوضعية الفرنسية

اتفاقا مع مايذهب اليه مارفن هاريس يمثل دوركيم عددا من الوجوه التى تستخلص منها الجهود المفسرة أنواعا من الزوايا الفكرية التى لايسهل التبنؤ بها ، فلقد صنف دوركيم على أنه كل شئ ابتداء من كونه ماديا الى كونه صوفيا غيبيا (٣٣) . يلقى الضوء على ذلك ان دوركيم شكل امتدادا لعناصر ومقولات مثالية كثيرة مثلما شكل بالمثل امتدادا لكثير من الأفكار الوضعية . بل ان الوضعية فى تفكير دوركيم شكلت على مايذهب تالكوت بارسونز الجانب الذى يقف فيه إميل دوركيم موقفا ايجابيا تطويريا ، بانه حافظ دائما على مفهوم الانفاق العام والتماسك وهو تصور سان سيمونى وكونتى أساسا (٣٤) .

ولقد كان منطقيا ان يشكل إميل دوركيم استمرارا للفكر الوضعى مادام الهدف الأساسى لهذا الاتجاه هو تأسيس علم الاجتماع وأعماله بفاعلية فى صياغة استقرار أو تغير الواقع الاجتماعى . ومن ثم فاننا غالبا مانجد تصنيف دوركيم فى سلة الوضعية غير انه مع ذلك له رفضه لكثير من قضاياها خاصة تلك التى لها طابع أيديولوجى .

أما فيما يتعلق باتصال دوركيم بالوضعية فنجده يرى ان استاذه الفكرى هو سان سيمون وليس أوجست كونت ، ومن ثم فمن الواضح أن دوركيم يعتبر سان سيمون وليس كونت رائدا عقليا له . اذ يؤكد ان فكرة الفلسفة الوضعية فى اطارها العام موجودة عند سان سيمون أساسا . ومن ثم فان هذا المفكر من وجهة نظره هو الذى يستحق الشرف المعطى عادة لأوجست كونت (٣٥) . ونتيجة لذلك نجد ان معظم القضايا التى اتفق فيها دوركيم مع الوضعية كانت تتصل بسان سيمون أساسا بينما كان رافضا دائما للقضايا الوضعية ذات النسب الكونتى .

ومما لاشك فيه بروز اتفاق دوركيم مع الوضعية فى اطار مجموعة مؤلفاته المبكرة ، حيث مثلت مؤلفاته تقسيم العمل الاجتماعى وقواعد المنهج فى علم الاجتماع ، المرحلة الحقيقية للالتزام الوضعى ، حيث يوجب على عالم الاجتماع ان يسلك مسلكا عقليا شبيها بالمسلك الذى ينهجه كل من عالم الطبيعة والكيمياء والفسيولوجيا حينما تناول بالدراسة بعض الظواهر التى لم تتضح بعد وتقع فى دائرة اهتمامه العلمى (٣٦) . وهو بذلك يقصد ان يكون علم الاجتماع على غرار علم الطبيعة والكيمياء ، ومن ثم فعليه ألا يعطى انتباها للاتجاهات السياسية السائدة وان يتجه الى دراسة حقائق الاجتماع وظواهر التعبير عن جوهرها ، فغايته علمية ، وان عليه ان يحاول التوصل الى اقوانين التى تحكم هذه الظواهر (٣٧) . ثم يذهب الى أن الظواهر الاجتماعية هى التى ينبغى أن تشكل مادة هذا العلم ، ويحاول تحديد ماهية هذه الظواهر فيصوغ لها تشيؤا وتجسيدا واقعيا حتى تكون ميسرة لتناولها علميا ، ثم يحددها بقوله انها تتكون من أساليب التفكير والشعور ، وان لها وجودها الموضوعى (٣٨) .

فيما يتعلق بهذه القضية نجد اتفاقا تاما مع الوضعية يتعلق بضرورة ان يصبح علم الاجتماع علما ، بحيث تكون الظاهرة الاجتماعية مادته الأساسية ، يدرسها كما تتناول العلوم الطبيعية مادتها ، عن طريق تناولها تناولا موضوعيا بادراك علاقاتها السببية ، وليس ذاتيا كما تذهب الاتجاهات النظرية الأخرى التى تطالب بالبحث عن معنى الواقعية الاجتماعية .

وفى اطار مجالات الاتفاق نجد ان دوركيم يوافق مع سان سيمون على ان الأفكار أو القيم الأخلاقية هى العنصر الأساسى الذى يحافظ على تماسك المجتمع حيث ان المجتمع هو أساسا – مجتمع من الأفكار – التى يشكل تماسكها رابطة أخلاقية وايجابية تعمل على توحيد البشر فى المجتمع (٣٩) . هذه الأفكار والقيم الأخلاقية هى التى تتجمع ككل عند إميل دوركيم لتشكل فيما بعد نوعا من الضمير الجمعى الذى يكون من وظيفته الأساسية المساعدة على تكامل تفاعلات النسق (٤٠) .

بالاضافة الى ذلك يتفق إميل دوركيم مع سان سيمون حول الشكل البنائى الذى لاتشكل العملية الصراعية محورا له . فهما معا اتفقا على ادانة النظرة النقدية الثورية . اذ أكد دوركيم على ضرورة ان تكون الفلسفة المعاصرة تركيبية تنظيمية وليست نقدية ثورية . أما الشكل البنائى الذى نال رضاها فهو الشكل الذى يمتلك وحدة أساسية . هذا البناء يحتوى على نوع من تقسيم العمل بين عناصر متآزرة ومتعاونة . وعلى هذا النحو يؤكد سان سيمون فيما يتعلق بتقسيم العمل الطبقى وعلاقاته الداخلية بقوله فى الحديث عن رجال الصناعة (انهم لايصدرون

الأوامر ولكنهم يعبرون عن طبيعة الأمور) .. ثم يؤكد ان هؤلاء الذين يوجهون ليسوا فوق هؤلاء الموجهين .. فهم ليسوا الملاحظين عليهم ، ان كل ما فى الأمر انهم ينجزون وظائف مختلفة (٤١) .

الى جانب ذلك اتفق دوركيم مع سان سيمون حول اعتبار ان المجتمع ليس ببساطة مجتمعا مع الأفراد ، ولكنه واقع أو حقيقة مفسرة لذاتها ، هذه الفكرة نجدها عند سان سيمون معبرا عنها صراحة حينما يقول : (ان المجتمع أساسا عبارة عن آلة منظمة ، تساهم كل من أجزائها بأسلوب مختلف فى حركة الكل) (٤٢) .

والى جانب نقاط الاتفاق هذه بين دوركيم والوضعية هناك عديد من القضايا التى اختلف مع الوضعية بشأنها . سواء تلك القضايا التى تتعلق بالمستويات المنهجية أو تلك التى تتعلق بالجوانب العينية للواقع الاجتماعى أساسا . وفيما يتعلق بالقضايا الخلافية على المستوى المنهجى نجد انه اذا كانت المباحث الأساسية لعلم الاجتماع فى هذه المرحلة تنقسم الى علم الاجتماع الاستاتيكى (المورفلوجيا) وعلم الاجتماع الديناميكى (الذى يهتم بقضايا التغير والتطور) . فى اطار ذلك نجد ان دوركيم يختار العمل أساس فى اطار الاستاتيكا الاجتماعية . وفى هذا الصدد نحن نتفق مع ارفنج زاتلين فيا ذهب اليه من انه اذا كان كارل ماركس قد طور الجناح الثورى فى تفكير سان سيمون فان دوركيم قد طور الجناح المحافظ فى تفكير ذات المفكر (٤٣) . هذا الى جانب أننا نتفق مع تالكوت بارسونز فى ان الاختلاف الأساسى بين دوركيم وكونت يكمن فى ان الأول لم يشارك الثانى اهتمامه البارز بقضايا الدينامية الاجتماعية Social Dynamics وانما اهتم أساسا بما سماه كونت الاستاتيكا الاجتماعية Social Stat-ics حيث كانت قضية النظام هى القضية الجوهرية بالنسبة لدوركيم فى هذه المرحلة (٤٤) . فقد كان دوركيم يرفض النزعة التطورية التى اهتم بها كونت الى حد كبير والتى شكلت الخلفية الفكرية لأنساق نظرية عديدة أخرها النسق النظرى الماركسى . وبالنظر الى ذلك نجد ان دوركيم يرفض امكان التنبؤ بالمستقبل باعتبار ان العلم الاجتماعى لم ينضج بعد لأداء هذه المهمة ، ومن ثم فهو يرفض شعار التقدم الذى رفعه كونت ، هذا بالاضافة الى أنه اختزل بعد الماضى فى شكل بنائى واحد خو مجتمع التضامن الآلى (٤٥) .

ويتمثل الخلاف الثانى حول طبيعة العوامل الدافعة للسلوك الاجتماعى فى اطار بناء المجتمع ، فبينما تذهب الوضعية الى القول بأن سلوك الانسان يتأثر بعاملين أساسيين هما عامل الوراثة – تحت تأثير ارتفاع شأن علم البيلوجيا فى هذه المرحلة ، الى جانب تأثير

المعطيات التى جمعت عن معظم الشعوب البدائية والتى كانت مراكزها البنائية تنتقل بشكل وراثى عبر الأجيال ، وعامل البيئة – تحت تأثير ان الانسان يشكل جزئية من الواقع المحيط به – فى اطار ذلك نجد ان دوركيم ينتقد أولا امكان ان تكون هناك أية قيمة تفسيرية للعوامل التى تبناها الوضعيون المؤمنون بالفردية individual positivists سواء كانت هذه العوامل بيئية environmental أو بيلوجية Biological أو سيكلوجية Psychological (٤٦). وهو مانجد أن دراسته فى الانتحار تعتبر من وجهة النظر هذه ردا واضحا على هذه الادعاءات . هذا بالاضافة الى برهنته على أن الوراثة تفقد فاعليتها كلما تقدم الذكاء الانسانى (٤٧) . أو بسبب اختلاط الاجناس (٤٨) . أو بالنظر الى نتائج الدراسات الكثيرة التى أجراها جالتون (٤٩) . وفى رفضه لتأثير العرامل البيئية يؤكد أن الحيوان الى حد كبير يستمر تحت التأثير الكامل لفاعلية البيئة الطبيعية ، حيث يتحكم تكوينه البيلوجى فى وجوده . أما الانسان فعلى العكس من ذلك ، فان وجوده يعتمد على أسباب اجتماعية (٥٠) .

أما فيما يتعلق برفضه للعامل السيكلوجى فيتضح من رفضه للرابطة التى يزعمها النفعيون بين التقدم الحضارى وزيادة السعادة ، وذلك من خلال دراسته للانتحار حيث أوضح مشاعر اليأس التى بدأت تنتاب الانسان المعاصر فتدفعه الى الانتحار وأكثر المؤشرات دلالة على ذلك ارتفاع معدلات الانتحار الأنانى وانتحار الأنومى (٥١) .

ويختتم دوركيم هذه المناقشة حول مدى فاعلية العوامل الفردية فى تأسيس الفعل الاجتماعى والتحكم فى مساره بقوله ان تركيب الجماعة مخالف لتركيب الفرد كما تختلف العوامل التى تؤثر فى الجماعة عن تلك المؤثرة فى الفرد (٥٢) . وفى أعقاب ذلك نجده يؤكد خضوع الانسان فى انجازه لسولكه لما يمكن أن يسمى بالبيئة الاجتماعية . اذ يذهب الى القول بأن السبب الذى يزيد من أهمية البيئة الجمعية هو ذاته الذى يضعف من أهمية البيئة العضوية بما يجعلها أكثر طواعية للانسان وخلفيته الاجتماعية . ثم يذهب الى أنه فيما يتعلق بالانسان وخاصة فى المجتمعات الأكثر تقدما ، فان الأسباب الاجتماعية تحل عادة محل الأسباب العضوية ، بمعنى أن الكائن العضوى يصبح روحيا (٥٣) . ثم نجده يحدد بشكل ايجابى طبيعة البعد الاجتماعى بالنظر الى محكات الخارجية exteriority والالتزام Constraint ، وانه بذلك لا يمكن ارجاعه الى الوراثة أو البيئة غير الاجتماعية (٥٤) .

بالاضافة الى مجموعة الخلافات المنهجية بين دوركيم والوضعية وخاصة الكونتية نجد ان له معها بعض المواقف الخلافية حول بعض القضايا العينية .

فمنذ البداية نجد ان لدوركيم خلافا حادا فيما يتعلق بظاهرة تقسيم العمل الاجتماعى . الذى يعانى نظاما جديدا لاسلوب ترابط أفعال الأفراد بما يعمق البعد الاجتماعى فى كل منهما بحيث تؤدى وظائفها متآزرة بما يشهد على تقسيم عمل فعال وملائم . فى اطار ذلك نجد ان كونت يدرك التطورات الصناعية الجديدة ، وتشتت المصالح المرتبط بها باعتباره تهديدا لوحدة وتضامن المجتمع القائم واعاقة للوحدة الاجتماعية والسلام فى المستقبل (٥٥) . فهو يرى فى التخصص على مايذهب جولدنر تهديدا مدمرا لضرب التقدم المنظم . ومن هنا وجدنا ان تقسيم العمل الاجتماعى كمؤلف صاغه دوركيم ليس سوى حوار مع الوضعية الكونتية فى جانب منه . اذ يؤكد دوركيم ان تقسيم العمل يمكن أن يقود الى نتيجة مختلفة تماما عن تلك التى توقعها كونت ، أى الى شكل جديد وأرقى فى التماسك الاجتماعى أو التضامن العضوى ليحل محله التضامن الآلى الذى يعتمد تآمل وجوده على مجرد تماثل الوعى بين الأفراد بينما يعتمد التكامل فى الثانى على تباين وتخصص الوظائف والأفعال (٥٦) .

واذا كان تقسيم العمل يقود الى تنافر المصالح عند كونت ، فانه منطقيا ان يقود الى الفوضى والى حالة أشبه ماتكون بحالة الحرب الهوبزية حيث يندفع الكل فى حرب ضد الكل ، ومن ثم فلكى يتجنب كونت هذه الحالة من الفوضى يفرض حلا شبيها بالحل الهوبزى ، وهو الحل الذى يسميه بالاتفاق الجماعى المفروض ، حيث ينادى باتفاق اجتماعى وأخلاقى يسود المجتمع ككل وتفرضه الدولة بالقوة Conforced by the state (٥٧) وهو مايؤكده ألفن جولدنر حيث يذهب الى أن أحد أسباب تأليف دوركيم لكتابه تقسيم العمل الاجتماعى هو مواجهة ذلك التيار الذى قاده الألمانى شيفله تأثرا بكونت ، والذى يؤكد فى اطاره على ضرورة ترسيخ الاتفاق الأخلاقى بفاعلية نظرا لأهميته بالنسبة للنظام الاجتماعى (٥٨) .

فى مواجهة ذلك نجد أن دوركيم يرفض منطق الاتفاق الاخلاقى الذى قد يكون ملائما لمجتمع التضامن الآلى لحفظ وحدته الاجتماعية وتماسكه غير أنه يصبح بلا معنى فى اطار مجتمع التضامن العضوى . الذى يتأكد تكامله بتباين أفعاله وتآزرها . هذا بالاضافة الى أن دوركيم يرفض دورا بارزا للدولة . اذ يؤكد أن ضعف الضمير الجمعى لمجتمع التضامن الالى مسألة حتمية وعادية ، ولايمكن اعتباره أحد أسباب تقسيم العمل الشاذ abnormal . وأن ماهو مطلوب لكى يتحقق التضامن العضوى أن ينشأ تنظيم regulation يحدد العلاقات المتبادلة بين الوظائف (٥٩) . بذلك يؤكد دوركيم على ضرورة نشأة العمل التنظيمى الذى يؤكد التآزر بين الأعمال المنتجة . ثم يؤكد أن ماقد يتبدى من صراع وفوضى ليس نتيجة لإنهيار النظام

الاخلاقى القديم ولكنه نتيجة لغياب نظام أخلاقى ملائم . وفى مواجهة تأكيد كونت على كفاءة الدولة كوسيلة لفرض النظام الاجتماعى وضبط تكامله ، نجده يذهب الى أننا وأن كنا فى حاجة الى العلاقات المنظمة للوظائف والأعمال ، إلا أن كونت كان مخطئا حينما عين الوظيفة التنظيمية للدولة فقط . ذلك لأن الحياة الاقتصادية الحديثة أكثر تعقيدا من أن تعطى لنظام واحد كالدولة . ثم يذهب الى أن مايصلح لأداء هذه المهمة هو الجماعات أو النقابات المهنية الموجودة فعلا والتى ازدهرت فى القرون الوسطى والتى يمكن احياؤها تحت الظروف الجديدة . فهى التى يمكن أن تساعد على أداء هذه الوظيفة التنظيمية التى أدتها بكفاءة فى الماضى . ثم يذهب الى أنه ينبغى ان يصبح الجماعة المهنية أساسا للأخلاق المهنية . ويستطرد مؤكدا أن النقابات المهنية ينبغى أن تصبح نظاما عاما . بحيث تكمن وظيفتها الأساسية فى تأسيس مبادئ شرعية وأخلاقية تنظم بالنظر اليها العلاقات بين مختلف المهن والطبقات . ويرى دوركيم فى هذه الجماعات ممثلا للعمال وأصحاب العمل . بحيث يؤدى وجودهما على هذا النحو الى استحالة قيام الصراع بينهم (٦٠) . بالاضافة الى ذلك فانها يمكن أن تؤدى دورا تحمى فى اطاره الفرد فى مواجهة طغيان الدولة . وهنا نجد أن دوركيم يرى أن الجهد التنظيمى ينبغى أن يكون وظيفة الجماعات المهنية وليست الدولة . وهو بذلك يحاول احياء هذه الجماعات لكى تشكل سياقات مماثلة لتلك السياقات العائلية التى سادت مجتمع التضامن الآلى والتى كانت قريبة من الانسان تمارس ضبطه وتآزر فعله بشكل مباشر ، وهو حل رفضه كل من هوبز ، روسو ، كارل ماركس .

خلاصة القول أن هناك آراء خلافية متعددة طرحت بشأن علاقة دوركيم بالوضعية ، فمن قائل أنه بدأ وضعيا صارما وانتهى نهاية مثالية واضحة (٦١) . ومن قائل بأن دوركيم كان يمثل موقفا وسطا بين الوضعية والمثالية . يتجلى ذلك بأوضح مايكون من دراسته الشهيرة (الأشكال الرئيسية للحياة الدينية) (٦٢) . والحق أن بحث علاقة دوركيم بالوضعية ينبغى النظر اليها فى ظل الاعتبارات الأساسية التالية :

١ – ان دوركيم وان اتفق مع الوضعية – كونت – فى ضرورة الغاء الفارق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة الاجتماعية . ومن ثم فعلى علم الاجتماع أن يدرس هذه الظاهرة باستخدام مناهج العمل الطبيعى . وهى المرحلة التى عبر عنها بمؤلفه (قواعد المنهج فى علم الاجتماع) . غير أنه فى هذا الاطار قد اختلف مع كونت من حيث تركيز الأول على قضية النظام وليست الدينامية أو التطور . وأيضا رفضه لعوامل التفسير الكونتية

للسلوك بالنظر الى عوامل الوراثة والبيئة . هذا الى جانب رفضه المتعدد لكثير من الفرضيات الكونتيه على المستوى العينى .

٢ – أن دوركيم صاغ حوارا مع معظم الاتجاهات النظرية التى سادت عصره . فهو أن اختلف مع المثالية فى مدى قدرة الفرد وأولويته على المجتمع اتفق معها حينما استعار من هيجل فكرة العقل الجمعى (٦٣) . وهو وان اتفق مع الوضعية فى تطبيقه لمنهج العلوم الطبيعية فى دراسته الظواهر الاجتماعية إلا أنه اختلف معها فى مسائل كثيرة كطبيعة العوامل المفسرة للفعل الفردى والاجتماعى ، ومن ثم فمن الخطأ افتراض أن دوركيم أما أن يكون وضعيا أو مثاليا ، وأنما الصحيح أن له رفضه وقبوله لقضايا أى من الاتجاهين النظريين .

٣ – أننا يمكننا أن نزعم أن إميل دوركيم طور نوعا من الوضعية ذات الطبيعة الخاصة . فهى وضعية تختلف فى بعض من ملامحها عن الوضعية الكونتية التى رفضها ضمن رفضه للنظريات الفرديةوضعية كانت أم نفعية (٦٤) . بالاضافة الى ذلك فان قول دوركيم بفكرة العقل الجمعى ، وهى فكرة فلسفية استعارها عن هيجل أساسا . لايعنى أنه قد أصبح مثاليا . وأنما هو قد حاول اخضاع الاظهارات الجمعيه بما تضمه من ظواهر لمنهج البحث فى علم الاجتماع . ومن ثم فحقيقة الأمر أنه قد حاول توسيع نطاق البحث العلمى الوضعى لكى يشتمل على هذا النوع من الظواهر ، التى آمن دوركيم فى فترة أخيرة من حياته أنها تختلف عن بقية الظواهر الطبيعية (٦٥) . ومع ذلك فمن الضرورى معاملتها كأشياء خارجية لها واقعها الخارجى عن الفرد والملزم له .

رابعا : دوركيم والقطيعة مع المذهب النفعى

لانتفق كثيرا مع ماذهب اليه ارفنج زايتلن من أن المشروع الدوركيمى كان موجها بصفة أساسية نحو المشروع الماركسى أو استجابة لشبح كارل ماركس . اذ تكشف تحليلات كثيرة ، أن النظرية الدوركيمية كانت موجهة فى قسم كبير منها نحو الفكر النفعى فى شخص أكثر رواد النظرية النفعية بروزا وهو هربرت سبنسر . بل أن كثيرا من المفكرين يؤكدون أن دراسة الانتحار كانت فى أساسها ردا فكريا على قول اتباع المذهب النفعى ان كم السعادة يزاد بازدياد التخصص وتقسيم العمل (٦٦) . مثلما كان تقسيم العمل الاجتماعى ردا فكريا على أوجست كونت الذى رأى فيه تهديدا تدميريا لاتفاق المجتمع العام (٦٧) . بل أن تالكوت بارسونز يؤكد أنه لدراسة علاقة دوركيم بالفردية النفعية . فان ذلك يستوجب منا توضيح القضايا

الأساسية التى يؤكد عليها هذا الاتجاه الذى شكل اطارا مرجعيا سلبيا [٦٨] . أثار فى دوركيم ضرورة مناقشة ورفض عدد من قضاياه .

ولتحديد علاقة دوركيم بالاتجاه النفعى نرى أن هناك ثلاثة قضايا أساسية احتدم حولها الخلاف والجدل بين دوركيم والنفعية . وتتعلق القضية الأولى بنشأة النظام الاجتماعى وتأسسه ، وأما القضية الثانية فتتعلق بفاعلية النظام وتفاعله وتنظيمه الداخلى ، أما القضية الثالثة فتتعلق ببواعث السلوك الاجتماعى وغاياته .

أما فيما يتعلق بالقضية الأولى المتعلقة بنشأة النظام الاجتماعى وتأسسه فنجد أن المذهب النفعى من خلال هربرت سبنسر يذهب الى أن المجتمعات فى أزمنة بعيدة كانت تتكون من مجرد بعض الأفراد المستقلين والمتجاورين . هذه المرحلة يمكن أن نسميها صفر الحياة الاجتماعية . على عكس ذلك نجد أن دوركيم يؤكد أن حياة البداءة كانت تتمتع بحياة جمعية Collect ve life قوية للغاية ومفسرة لذاتها . هذه الحياة تظهر نفسها ليس من خلال التعاقدات والتبادلات الاقتصادية وأنما من خلال مجموعة من المعتقدات والممارسات المشتركة [٦٩] . وذلك يعنى اعتقاد دوركيم فى ان الأصل المعيارى للمجتمع سابق على تأسيس الأفراد ، يؤكد ذلك قول دوركيم ان الانسان فى حالة الاجتماع الأوربى كان لا أخلاقيا Amoral [٧٠] . ويعنى ذلك أيضا ان ما يسمى مجتمعا تحقق حينما تخلفت أخلاق تنظيم حياة الأفراد المنفصلين . ومن هنا فليس يكفى شرط وجود أفراد مستقلين ومتجاورين فقط لكى يوجد المجتمع .

وتتعلق القضية الخلافية الثانية بالأصل الفردى للمجتمع وهو الشعار الذى رفعه الاتجاه النفعى ، حيث يرجع هربرت سبنسر ماهو اجتماعى الى مكونين أساسيين أما المكون الأول فيتمثل فى الشروط الخارجية أو الظروف البيئية الكونية ، ويتمثل المكون الثانى فى الشروط الداخلية أو الظروف العضوية والنفسية أو الفردية ، مع التأكيد على ان فاعلية المكون الأول لابد ان تتم من خلال الثانى [٧١] . ويرتبط بذلك قضية أخرى تتصور حالة الاجتماع عبارة عن تجمع أساسى لمجموعة من الأفراد الذين من أجل الحياة لابد ان يبحثوا عن التعاون لتأمين وجودهم الاجتماعى ، ومن ثم يصبح التعاون حالة اضافية [٧٢] . فى مواجهة القضية الأولى نجد أن دوركيم يؤكد ان سبنسر يخطئ حينما يتصور ان عالم الاجتماع كعالم الرياضة يستطيع أن يستنتج من شكل عدد من الكرات الشكل الذى تتوازن فيه . بالنظر الى ذلك يؤكد دوركيم ان الكل هو الذى يحدد شكل الأجزاء ، فالمجتمع يرسى ركائزه فى ضمائر الأفراد ،

دون ان يستمد هذه الركائز من ضمائر الأفراد [٧٣] . ومن ثم فمن الزيف ان نفترض ان الكل مساو لمجموع أجزائه [٧٤] . أو انه يشتق خصائصه من خصائص هذه الأجزاء . أما القضية الأخرى فهى التى تؤكد على فكرة العقد الاجتماعى كأساس لنشأة النظام الاجتماعى واستمراره ، حيث نجد ان دوركيم يؤكد انه اذا كان المجتمع فى حالته الصفرية يتشكل من مجموعة من الأفراد المستقلين والمتجاورين ، فان هذه الحالة تضعهم أمام احتمالين . الصراع على الطريقة الهوبزية أو التعاون واستمرار الانسان . وهو مايؤكد بحث الأفراد فى حالة البداءة عن صيغة للتعاون لكى يتجنبوا الصراع . ويؤكد سبنسر ان الانسان فى البداية اكتشف حاجاته للآخرين ، لأنه يعجز وحده عن اشباع حاجاته ، وهو مادفعه الى تأسيس العلاقات مع الآخرين [٧٥] . وبذلك يؤسس سبنسر بناء المجتمع ونظامه على أساس من العلاقات الاقتصادية التى تهدف الى اشباع حاجات أساسية لدى الانسان الفرد .

ويعنى ذلك انه فى ظل مثل هذه الظروف فان الصلة الوحيدة الباقية بين البشر هى تلك التى تدعم التبادل الحر . حيث تصبح هذه العلاقة هى السائدة فى المجتمع مادام النشاط الفردى هو الأساس . ثم يؤكد انه فى المجتمع الصناعى الكامل النمو فان العلاقات التعاقدية تصبح هى النمط السائد [٧٦] . ويؤكد سبنسر متفقا فى ذلك مع سائر رواد المدرسة النفعية ان النظام الاجتماعى بكامله ليس سوى نظام شامل من التعاقدات الخاصة التى تربط الأفراد ببعضهم البعض حيث تصبح هى الأساس الوحيد لذلك . ومن ثم لاترى النفعية فى التضامن الاجتماعى سوى نوع من التوافق التلقائى للمصالح الفردية . وهو التوافق الذى تكون التعاقدات هى التعبير الطبيعى عنه ، ومن ثم فالعلاقة الاجتماعية النمطية هى العلاقة الاقتصادية الخالية من أى تدخل تنظيمى ، والناتجة عن المبادأة الفردية الحرة لأطرافها [٧٧] .

فكأن سبنسر أراد أن يجعل الثورة المعيارية للمجتمع ناتجا طبيعيا عن مجموعة التعاقدات التى تتأسس بين أفراد المجتمع . فى مواجهة ذلك نجد انه تحت تأثير الفكر الألمانى وبخاصة فلهلم فوندت الذى اهتم أساسا بالعلاقة بين السلوك والمعتقدات الأخلاقية فان دوركيم يرفض قول النفعية بأن مصدر الأفكار الأخلاقية يكمن فى الفرد الذى يخلقها من خلال عمليات الحساب الرشيد للمصلحة الذاتية .، فهو يؤكد أن الأخلاق لايمكن نسبتها الى التعقل والحساب الرشيد ، ذلك ان نتائج أفعالنا ودوافعها تذهب الى أبعد من دافعها الأصلى [٧٨] .

بالاضافة الى ذلك نجد ان دوركيم يؤكد ان فكرة العقد الاجتماعى كأساس للنظام الاجتمعى فكرة لايمكن الدفاع عنها لأنها تفقد أية صلة بالحقائق الموضوعية . فليس هناك ملاحظ أشار اليها الى جانب انه ليست هناك مجتمعات لها مثل هذا الأصل ، وليس هناك بناء يمكن نسبته الى التنظيم التعاقدى ، فالتعاقد ليس حقيقة موجودة فى التاريخ ، ولا هو اتجاه نشأ من خلال التطور التاريخى (٧٩) . ويؤكد دوركيم ان الفعالية الحقيقية لأى تعاقد بين الأفراد تعتمد أساسا على فكرة باطنية أو داخلية فى ان هناك شيئا ما يسمو على التعاقد ، ومتضمنا فيه ، شيئا ما سابقا على العقد وساميا عليه ، وكذلك الأمر بالنسبة للأفراد المتعاقدين (٨٠) . وفضلا عن ذلك يؤكد دوركيم انه لا يوجد شئ فى عنصر المصلحة الفردية يمكن ان يربط شخصين إلا لمدة موجزة وعابرة . وحيثما قامت علاقات البشر على أساس من المصلحة ، فانها لن تدوم أكثر من لحظات قصيرة ، فليس هناك شئ أقل دواما من المصلحة ، فاليوم قد تربطنى بك ، إلا أنها غدا قد تجعلنى عدوا لك (٨١) .

ويؤكد دوركيم ان هناك عنصرا معياريا لا تعاقديا موجوداً فى أى عقد يستند الى الالزام الأخلاقى أو الدينى أو القانونى أو كل هذه مجتمعة . واننا اذا قلنا ان العقود الموجودة منذ القدم وفى قلب التاريخ ، فان ماهو موجود أيضا مجموعة من الأوامر والنواهى المنبثقة من مصادر خارجية عن العقد وسامية عليه . وبإيجاز يؤكد دوركيم ان العقد ليس كافيا ، ولكنه ممكن فقط بالنظر الى تنظيم التعاقد وهى قضية اجتماعية فى أساسها (٨٢) . ثم يذهب الى ان اتفاق المتعاقدين لا يعنى صحة العقد اذا لم يراع شروط الصحة المحددة بواسطة القانون ، فهناك من المعايير مايؤكد رفض العقد وبطلانه اذا تم تحت ظروف القهر أو اذا كان لغرض منحرف ، أو اذا افتقد أحد أطرافه أهلية التعاقد (٨٣) .

ويذهب دوركيم الى أبعد من ذلك فيؤكد اننا اذا اتفقنا على ان التعاقدات الفردية هى كمصدر النظام الاجتماعى باعتبارها عناصره التكوينية المؤسسة ، فان هذا النظام لكى يصبح نظاما اجتماعيا تتحقق فى اطاره المناشط التى أراد النفعيون – وخاصة الاقتصاديون – تحقيقها من تأسيسه ، فان ذلك يستلزم سيادة نوع من النظام الذى يحتوى على مجموعة من القواعد المنظمة ، حيث انه بدون هذه القواعد تصبح حالة الاجتماع مهددة بالانحدار ثانية الى حرب الكل ضد الكل . هذا النسق من القواعد المنظمة هو عبارة عن نسق القواعد المعيارية (٨٤) .

أما القضية التالية التى دار حولها حوار مع الموقف النفعى فتتعلق بدوافع السلوك التى أراد النفعيون ارجاعها الى دوافع داخلية ذات طبيعة سيكولوجية . فى اطار ذلك فان الغرض الحقيقى من مؤلفه قواعد المنهج فى علم الاجتماع هو ان يوضح بكل وسيلة زيف ارجاع ماهو اجتماعى لما هو سيكولوجى . حيث يؤكد ان مفكرين مثل سبنسر فى انجلترا وتارد فى فرنسا استمرا فى البحث عن تفسير النظم الاجتماعية والأساليب الجمعية للسلوك ، بحالات أو عناصر مستمدة من الوعى الفردى . وذلك مايصفه دوركيم دائما للزيف ، وهو مماثل للزيف الذى نرجع فى اطاره ماهو سيكولوجى لما هو بيولوجى ، وماهو بيولوجى لما هو كيميائى . وفى موضع آخر نجد أن دوركيم يؤكد ان الحقائق الاجتماعية لا تختلف فقط عن الحقائق السيكولوجية من ناحية النوع ، ولكن لكونها من فئة مختلفة ، حيث تنمو الحقائق الاجتماعية فى وسط مختلف ، بل وتعتمد على شروط أو ظروف مختلفة (٨٥) . وفى موضع آخر يذهب دوركيم الى القول (بان مادة الحياة الاجتماعية) لايمكن تفسيرها بعوامل سيكولوجية خالصة ، أعنى بواسطة حالات الوعى الفردى التى تبدو واضحة للغاية بالنسبة لنا . فالجماعة تختلف عن الفرد من حيث التكوين والعوامل التى تؤثر فيها اذ نجدها من طبيعة مختلفة ، ولكى نفهم الأسلوب الذى يفكر به المجتمع فى ذاته وفى بيئته فان على الباحث ان يهتم بطبيعة الأفراد ، وحتى الرموز التى تعبر عن تصورات الأفراد تختلف وفقا لنموذج المجتمع (٨٦) .

بالنظر الى ذلك نجد ان الاتجاه النفعى من خلال سبنسر يحاول تفسير السلوك بالنظر الى السعادة ، ومن ثم فدوافع السلوك ذاتية بطبيعتها ولذلك فهى تحاول نسبة السلوك الانسانى دائما الى دوافع داخل الانسان (٨٧) . وبتطبيق ذلك على الفعل والسلوك فى اطار تقسيم العمل الاجتماعى يحاول سبنسر أن يفسر ذلك بالنظر الى السعادة التى يتخيلها الانسان من وراء ذلك . فهو يذهب الى أن تقسيم العمل يمكن أن يقوم تحت التأثير الشامل للأسباب السيكولوجية والفردية . فالحاجة الى السعادة هى التى تدفع الانسان الى التخصص أكثر فأكثر (٨٨) . اذ يؤكد سبنسر أنه كلما زاد التخصص بين البشر زاد انتاجهم ، وارتفع مستوى اشباع حاجاتهم وعاد عليهم ذلك بالسعادة . وكلما تقدم تقسيم العمل ارتفع مستوى سعادة الانسان . غير ان دوركيم لايوافق على هذه المقولة ، مؤكداً على إننا أننا عادة مانأتى أفعالنا لاشباع حاجات اجتماعية .. أننا حينما نتضرع الى الله ، أو نزرع أرضنا قمحا أو نتزوج من فتاة جميلة ، أو ندفع الضرائب التى علينا ، فاننا بذلك نطيع حقيقة ترسم لنا مسالك هذه الأفعال التى قد لا

ترغب فرديتنا فى انجازها ، ومع ذلك فنحن نطيعها لأنها أكبر وأقوى من نواتنا الفردية [٨٩] . بذلك يقدم دوركيم خلافا ضمنيا مع الاتجاه النفعى حول طبيعة الفعل أو السلوك ، فبينما السلوك ارادى من وجهة النظر النفعية لاشباع دوافع ذاتية لدى الانسان ومنبثقة من داخله نجده لا ارادى عند دوركيم مفروضا على الانسان أن ينجزه لأن فى ذلك اشباعا لحاجة لدى المجتمع.

فيما يتعلق بالسياق الاجتماعى الذى يتم فى اطاره الفعل أو السلوك نجد أنه يتكون من وجهة النظر النفعية من الأنا والآخر اللذين يشبعان حاجاتهم من خلال التبادل التعاقدى للمصالح . هذا التعاقد الذى قد يشكل قواعد معيارية تحكم السلوك ، من هنا نجد أن الموقف أو السياق الاجتماعى لديها ناقص لأنه يفتقد الجهد التنظيمى الذى يتولى ضبط هذه الأفعال وصياغة تآزر بينها . والحق أن النفعية تسقط عن وعى أهمية الجهد التنظيمى ووسائله ، حيث نجدهم يفترضون وجود القوانين الأساسية للاقتصاد بذاتها حتى ولو لم توجد أمم أو دول فى العالم ، فهم يفترضون وجود الأفراد الذين يتبادلون حاجاتهم [٩٠] . ويرتبط بذلك أن الاتجاه النفعى يرى أن هناك نوعين من الضبط الاجتماعى فى الموقف . أحدها الضبط الايجابى الذى يفرض على الانسان من سلطة ما أن يأتى افعالا أو سلوكيات معينة ، أو يأتيها وفقا لاعتبارات محددة . والضبط السلبى الذى يعنى الامتناع عن التدخل فى أفعال الانسان وهو يرى أن الأول لا لزوم له بينما الضبط السلبى هو ما ينبغى أن نأخذ به [٩١] .

لذلك نجد أنه اذا كان الاتجاه النفعى يركز على ارادية الانسان وتلقائيته فى انجازه لسلوكه بالنظر الى دوافعه الداخلية فى موقف ليس فيها سوى الضبط السلبى الذى يستند أساسا فى فاعليته الى شخص الانسان ، فاننا نجد أن دوركيم يؤكد موقفا مضادا . ففى مقابل الارادية النفعية نجد ان دوركيم يعرف الحقائق الأخلاقية Moral Facts بأنها (قواعد السلوك ذات الجزاء) . فالسلوك الأخلاقى ليس بالضبط الوسيلة أو الطريقة المعتادة للتصرف أو الفعل ، ولكنه قبل كل شئ أسلوب ملزم لأداء الفعل ، وأنه ليس متروكا لهوى التحكم الارادى للفرد [٩٢] . ثم يؤكد أن أشكال الفعل أو السلوك لايبتدعها الفرد . وانما هى تشكل جزء من نسق الالتزامات الاخلاقية التى يرتبط من خلالها بالبشر الآخرين . وقد يحدث أن يهزأ الفرد بأى من الالتزامات ، غير أنه اذا فعل ذلك يشعر بقوتها وطبيعتها الملزمة Constraining char-acter فحتى اذا حررت نفسى وكسرت بحرية هذه القواعد فانه يصبح مفروضا على أن أناضل

ضدها ، وهى أثناء ذلك تجعلنى أشعر بقوتها الملزمة عن المقاومة التى تقدمها [٩٣] . وذلك عن طريق وسائلها العديدة كالبوليس والقانون والمحاكم .

خلاصة القول أن الموقف النفعى يرى فى الفرد أولوية على الوجود الاجتماعى الذى يتحول لديه ليصبح احدى الوسائل فى موقف الانسان الفرد ، التى تساعد على التكيف مع الطبيعة ، ومن ثم يتحول المجتمع لدى أنصار هذا الاتجاه الى مجرد وسيلة لاشباع حاجات ذات طابع فردى أساسا . بينما على الطرف المضاد نجد دوركيم لايرى فى الموقف الاجتماعى سوى المجتمع الذى يفرض على الأفراد حاجاته غايات لأفعالهم وسلوكياتهم . وهما موقفان بينهما من الافتراق أكثر مما بينهما من الالتقاء .

خامسا : دوركيم ونطاق الخلاف مع الماركسية

كان دوركيم أقل أقرانه – ماركس ، ماكس فيبر – اهتماما بالاحداث السياسية الكبيرة التى سادت عصره ، لهذا وسمت أعماله بالطابع الاكاديمى أساسا [٩٤] وقد انعكس ذلك على طبيعة حواره مع كارل ماركس . فهو لم يرفض القضايا الماركسية وأن قدم معالجات لبعض القضايا التى تعرض لها ماركس . من أجل ذلك لاتتفق مع مايذهب اليه أرفنج زايتلن من أن المشروع الدوركيمى كان حوارا مع الشبح الماركسى ذلك أن دوركيم قد حاور مختلف التيارات الفكرية لعصره . رفض قضايا بعضها مثلما الحال فى حواره مع الاتجاه النفعى وتبنى قضايا البعض الآخر مثلما الحال بالنسبة للمثالية والوضعية ، وقدم وجهة نظر أخرى فيما يتعلق بقضايا البعض الثالث ، مثلما الحال فى حواره مع الماركسية .

ولقد بدأ اتصال دوركيم بالماركسية من خلال اهتمامه بالأفكار الشيوعية والاشتراكية التى سادت عصره . اذ بدأ اهتمامه بقضايا الاشتراكية منذ بداية ١٨٨٣ ، وهو ذات الوقت الذى بدأ فيه خطة مؤلفه تقسيم العمل ، وبينما هو يتقدم فى تأسيس تقسيم العمل : الانتحار ، العائلة ، والأشكال الأساسية للحياة الدينية . نجده قد أسس مجموعة من الدراسات الشاملة التى انتقل عبرها من الاهتمام بالاشتراكية الى الاهتمام بعلم الاجتماع وعدد من القضايا الأخلاقية . ومع ذلك فقد لاحظ مارسيل موس Marcel Mauss أن دوركيم لم يفقد اهتمامه بنقطة البداية ، وحينما بدأ ثانية فى عام ١٨٩٥ فى الاهتمام بدراسة الاشتراكية حيث ألقى سلسلة من المحاضرات عن هذ الموضوع فى جامعة بوردو Bordeaurx ، إذ حاول تناولها

بشكل موضوعى وسوسيولوجى . حيث طرح تساؤلا أساسيا يتمثل فى : كيف للباحث أن يفسر الأشكال العديدة للأيديولوجيا الاشتراكية ؟ ، ماهى الظروف والضغوط الاجتماعية التى دفعت سان سيمون Saint-Simon فورييه Fourier أوين Owin ، ماركس Marx الى تأسيس نظرياتهم . ومن ثم فيمكن اعتبار دراسات دوركيم عن الاشتراكية عبارة عن تحليل لاسباب الفكرة (٩٥) وهو مايدخل اساسا فى اطار مبحث سوسيولوجيا المعرفة .

هذا وقد تصدى دوركيم لدراسة الاشتراكية نظرا لأنه حاول – منذ أن كان دارسا – تقديم فهم للعلاقة بين الاتجاه الفردى والاشتراكية (٩٦) . بالاضافة الى محاولة صياغة تفرقة بين الاشتراكية والشيوعية باعتبار أن الأولى تعبر عن نظام اقتصادى متقدم يسود مجتمعاتنا المعاصرة ، أما الثانى فتنظيم مختلف ، ساد المرحلة البدائية . أما الهدف الثالث فتمثل فى ادراك دوركيم ان البرامج التى قدمها مختلف الاشتراكيين – تتضمن أساسا اعادة توزيع الثروة من خلال الضبط أو السيطرة المركزية على الاقتصاد – فشلت – من وجهة نظر دوركيم – فى ادراك المشاكل أو القضايا الأكثر أهمية تلك التى تواجه عصرنا الحديث . اذ اعتبر دوركيم الاشتراكية تعبيرا عن أزمة المجتع المعاصر . غير أنها بذاتها ليست كافية لاعادة التأسيس الاجتماعى لتجاوز هذه الأزمة (٩٧) .

ولقد تركزت مناقشة دوركيم النظرية لهذه المسألة حول التمييز الواضح بين الاشتراكية والشيوعية . وبالمعنى الذى يستخدمه دوركيم فان الشيوعية تعتبر المذهب الذى يهدف الى السيطرة القوية على النشاطات الاقتصادية بواسطة هيئات مركزية للمجتمع ، مدفوعة أساسا بواسطة الاحساس بمخاطر المصالح الاقتصادية غير الموجهة uncontrolled بالنظر الى الأهداف والغايات الاجتماعية العليا . ويذهب دوركيم الى ان جمهورية أفلاطون تعتبر مثالا نموذجيا للكتابات الشيوعية ، ثم يذهب الى أنه مادامت جاذبية هذه القضية مستمرة بالنسبة للمجتمع البشرى فى كل مكان وزمان فان الأفكار الشيوعية لا ترتبط بموقف اجتماعى محدد ، ولكنها تظهر بشكل عشوائى فى كل أنواع الظروف .

وعلى خلاف الشيوعية تعتبر الاشتراكية ظاهرة مرتبطة بموقفنا الاجتماعى الحديث ، غير أنها لايمكن أن تظهر كحركة فعالة بدون الوجود المسبق لجهاز حكومى كامل النمو قادر على تحمل أعباء الوظائف الادارية المعقدة التى تشكل جوهر النموذج الحديث للنظام الاقتصادى . ويكشف تفحص مفاهيم دوركيم عن الاشتراكية أنه يعرفها مستبعدا منها عناصر

المساواة ، وهى العناصر التى تؤدى بلا شك دورا هاما فى الحركة الواقعية لهذه الفلسفة (٩٨) .

بالاضافة الى ذلك نجد أن دوركيم قد وقف فى منطقة الوسط بين الجناح المحافظ الذى أكد كثيرا على أهمية التنظيم الأخلاقى والذى يقف على رأسه دى ميستر ، وبين الاتجاه الراديكالى الذى يعطى الأولوية لاصلاح البناء الاقتصادى على ماتذهب الماركسية . حيث نادى دوركيم بضرورة دعم التربية الأخلاقية التى تهدف الى تأسيس اتفاق أخلاقى ولو تتطلب الأمر اجراء بعض التعديلات البنائية (٩٩) . الى جانب أنه يشترك مع كارل ماركس من حيث أصلهما الفكرى المشترك الذى يرجع الى سان سيمون . الذى احتوى بناؤه النظرى على الثورة من ناحية ، وردود الفعل المحافظة من ناحية أخرى . فاذا طور ماركس الفكر الثورى لسان سيمون ، فاننا نجد أن دوركيم قد طور الميل المحافظ لديه (١٠٠) .

ويبدأ الخلاف من طبيعة تصور كل منها للمسألة الاجتماعية ، فبينما يراها ماركس تتمثل فى استغلال احدى الطبقات للطبقات الأخرى عن طريق احتكارها غير المشروع لأدوات الانتاج ، وخلق الظروف الملائمة لتأسيس فائض القيمة الذى يساعد على دعم الوجود الاجتماعى الذى تخضع فى اطاره البروليتاريتا الصانعة لهذا الوجود لعدد من الاغترابات ، ومن ثم فحل المسألة الاجتماعية لديه يتمثل فى ثورة البروليتاريا لتأسيس ملكية الدولة لوسائل الانتاج وتأسيس نظام جديد لتقسيم العمل الاجتماعى (١٠١) .

أما بالنسبة لدوركيم فالمسألة الاجتماعية لديه ليس لها طابعها الطبقى . اذ نجد ان دوركيم لايطرح تناقض الغنى مع الفقير ، العامل مع صاحب العمل ، كما لو أن الحل يتمثل فى اقتطاع جزء من احدى الطبقات لزيادة نصيب الطبقات الأخرى . ومن ثم فهو يؤكد أننا نحتاج الى القضاء على حالة عدم التنظيم هذه ، وكبح جماح السعى وراء الشهوات تلك التى تفرض معاناة على النشاط الاجتماعى . ومن ثم فالمسألة الاجتماعية لديه لاتتعلق بالمال أو القوة أو الجوانب الاقتصادية ، وانما هى تتعلق بالوسائل الأخلاقية Moral agents، وأن السيطرة عليها ليست من خلال حالة اقتصادية ولكن من خلال حالتنا الأخلاقية (١٠٢) .

ويشكل تقسيم العمل الاجتماعى القضية الخلافية التالية فى هذا الصدد . اذ نجد أن كارل ماركس ينظر الى تقسيم العمل نظرة طبقية ، حيث تحتكر احدى الطبقات حرفة الأيديولوجيا أو الانتاج العقلى ، ومن ثم تحاول فرض أفكارها على الطبقات الأخرى لتبرير

استغلالها لها ، ومن ثم فتقسيم العمل لدى ماركس ذو طبيعة تجزيئية تهيئ طبقات المجتمع للدخول فى صراع مع بعضها البعض [١٠٣] . ويرتبط بذلك تصور ماركس للانسان الذى يمتلك عددا من الملكات التى ينبغى أعمالها ، والتى تؤدى أعمال أى منها من خلال تقسيم العمل والتخصص الى تغريب الانسان عن ذاته . ومن ثم فتقسيم العمل بالنسبة لماركس يشكل موقفا يجد الانسان نفسه فى اطاره مستعبدا ، موقفا يجد فيه نفسه مشوها عقليا وفيزيقيا لأنه يظل مرتبطا بوظيفة محددة . ويأمل ماركس أن يأتى زمان يتحرر فى اطاره البشر – نتيجة للقدرة الانتاجية أو للتغير فى طبيعة العلاقات الاجتماعية – من حتمية انجاز وظائف معينة ، ومن ثم يكون باستطاعتهم بدلا من ذلك كما يذهب ماركس فى الأيديولوجيا الألمانية ان يعملوا كل امكاناتهم أن يكونوا أحرارا لصيد السمك أو قرض الشعر أو مناقشة الفلسفة [١٠٤] . بذلك نجد أن كارل ماركس يرفض تقسيم العمل الذى يسود المجتمع الرأسمالى ويطلب الغاءه وتغييره الى نظام يتيح الأعمال الحر لكل الملكات الانسانية مجتمعة .

فى مواجهة ذلك نجد أن دوركيم يتصور نظاما لتقسيم العمل يمتلك البشر فى اطاره ميلا طبيعيا لأداء الوظائف المتاحة . ومن ثم فمجتمعه الملائم هو ذلك المجتمع الذى قد يقع فى اطاره تفاوت . غير ان هذا التفاوت يستند الى تفاوت فى القدرات الطبيعية [١٠٥] ، وفى مناقشته لتقسيم العمل القسرى ، يؤكد ان نظام الطبقات والطوائف يشكلان تنظيما لتقسيم العمل ، وهو تنظيم صارم التحديد بالرغم من كونه مصدرا دائما للشقاق . فالطبقات الدنيا قد لا ترضى بدورها الذى أوكل اليها بحكم العادة والقانون . ومن ثم فقد تتمنى بعض الطبقات القيام ببعض الوظائف الموضودة أمامها ، ومن ثم تحاول ان تنتزعها من هؤلاء الذين يمارسونها ، وقد يهدد ذلك بقيام الحرب المدنية [١٠٦] .

ثم يحاول دوركيم ان يبرر الشكل الطبقى على النحو الذى هو عليه فهو يؤكد من ناحية أننا اذا قلنا أن المجتمع كالكائن العضوى ، فان الكائن العضوى يضم خلايا متخصصة فى أداء وظائف محددة ، ومن ثم لاتحاول أى من الخلايا سلب وظيفة خلية أخرى . ثم يطرح قضية أساسية عن ضرورة أن يتلاءم تقسيم العمل مع الميل أو الاستعداد الطبيعى للانسان ، ثم يؤكد أنه لكى يحقق تقسيم العمل التضامن ، فانه لايكفى حينئذ أن ينجز كل شخص وظيفة ، أو عملا وانما يظل من الضرورى أن تكون هذه الوظيفة ملائمة له [١٠٧] . ثم يؤكد ان تقسيم العمل قد يدفع الى الآلام والمعاناة والصراع اذا هو لم يراع توزيع الملكات الطبيعية [١٠٨] .

ويحاول دوركيم ابراز عدم منطقية الثورة البروليتارية التى تحل فيها البروليتاريا محل البرجوازية فى ملكية أدوات الانتاج وقيادة العملية الاجتماعية والاستفادة من نتاجها . فيؤكد ان تقليد احدى الطبقات الأخرى ومحاولة احتلال مكانها يكون ممكنا اذا تماثلت الاستعدادات الطبيعية لهذه الطبقات . فالحاجة للخروج من طبقة لأخرى تتطلب ان تختفى الخلافات بين الطبقات ، أو على الأقل يتضاءل نموها (١٠٩) . ويعطى لذلك مثالا من التاريخ الاجتماعى فيؤكد أنه حينما طمع عامة الرومان Plebeians – فى روما القديمة – فى الحصول على حق شغل الوظائف الدينية والأدارية من النبلاء Patricians فان ذلك لم يتم بمحاولة تقليدهم ، ولكن لأنهم أصبحوا أكثر غنى وذكاء وعددا ، ومن ثم فقد تعدلت استعداداتهم وطموحاتهم (١١٠) . ثم يتجه دوركيم بعد ذلك الى التأكيد على مرضية تقسيم العمل القسرى أو الارادى فيقول أن تقسيم العمل الاجتماعى يمكن أن يؤدى الى التضامن اذا كان تلقائيا ، ويعنى ذلك اذا عبرت التفاوتات الطبقية والاجتماعية عن تفاوتات طبيعية (١١١) .

غير أن تحليل وجهة النظر الدوركيمية فى هذا الصدد تكشف عن قصور شديد ، فهو لم يناقش العنصر الجوهرى لتأسس الطبقات من وجهة النظر الماركسية ، كاحتكار وسائل الانتاج أو مشروعية فائض القيمة على نحو مافعل ماكس فيبر فيما يتعلق ببعض القضايا الماركسية . هذا الى جانب أنه حينما يؤكد أن تقسيم العمل الاجتماعى يصبح مشروعا وملائما اذا هو قد تلاءم مع القدرات الطبيعية المتفاوتة للأفراد ، فانه بذلك يخون منهجيته التى أكد مرارا فى اطارها أن الحقيقة الاجتماعية مفسرة لذاتها ، وأنه يستحيل تفسيرها بعوامل أو خصائص فردية وذاتية .

وتعتبر طبيعة السلوك الاجتماعى من القضايا الخلافية بين ماركس ودوركيم . فبينما يراه ماركس خاصة فيما بعد الثورة البروليتارية ارادية كما هو فى التغيير الثورى البروليتارى للبناء البرجوازى يراه دوركيم تلقائيا ومفروضا من الخارج . وان البشر ليسوا سوى أدوات تنفيذ ارادة كيان ، أو وحدة أكبر منه ، يلزمهم باتيان أفعال أو سلوكيات معينة ، هذا الكيان هو الضمير أو الوجود الجمعى .